إشراقات أدبية

٢٦

تداعيات العشق والغربة

صلاح والى

دراسة

د. أحمد درويش



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

ليس بمحض الصدفة أنك لم تبع نفسك مطلقا

ص ٠ و

ألف باء الجحيم

ألف باء الجحيم

ألـف :

سارية وشراع
حد سيف وكف اعتراض
دائما واحد منفرد
فى حدود الجماعة جزء
وفى سطوة الحزن فرد
وفى قمة المجد ألف ذراع

— — —

رغم أنف الحوانيت ـ تلك التى أغلقت فى المساء
تمشى تجادل أرصفة الشارع الحجرى الحديث
وتسأل جاراتها عن صديق
زلزل الصدر بالموج

سار على متنه للبعيد

وتعبر جسر الزجاجة مكتئبا فى القيام

ومبتسما فى القعود

ومرتحلا فى الغناء

وتدرك أن البرودة مسكونة بالرياح

وان السحابات حبلى ببعض الدماء

وأن البحار التى أولمت للغزاة مراكبها

لبست ثوبها الأرجوانى

واتخذت فوق شط المحيطات متكأ

فارتمت تحت سن الأسنة خاضعة

بـــاء :

قارب فوق سطح المحيطات معتقل

ساكن فيه جوهره

هلال على صفحة الماء منتشر

وضياع يحاصر بوتقة

لا تولوا جسدى للرياح

ولا تولوا للرياح الوطن

فالاسنة مغموسة فى الدماء

والقلب قد مزقته المحن
صالب حزنى الآن فوق البطاح
صالب حزنى الآن رغم الشجن
فارتوى يا رماح
ارتوى
رغم هذا المساء
دائما سيمر الزمن .

اغتيال

(١)

المرأة التي أفاقت في الصباح
فوق عريها الظلال والنهار
لم تكن معي

لكنهـا
بالأمس كانت تستحم في دمي
وتضحك العرائس الخشب
وتنبت الجناح للكتب
وتفتح الأبواب في ظلام حجرتي
لساعة الجحيم

لكنهـا
مع الصباح لم تكن معي !!

(٢)

رافقتها من مطلع الصبا
ولم أرد لى غيرها
لكنهـــا
تزورنى هنيهـــة
ونقضى ساعة
وفجأة
تقوم تفتح الشباك
ثم تختفى ؟!

— — —

عامين هـــكذا
ما بين كل دورة ودورة تعود
تقص عن حبيبها القديم
وعندما أتوه فى السديم
تمد اصبعا من الضياء
فأنتشى
فتقفل الأبواب فى ظلام حجرتى
عن عشقها القديم
يصيبها الاعياء !!

(٣)

مع الصباح
تطعم الحمام قلبها
وتنتشر
على المقاعد المضاجع الصور
حقلا من الليمون والقبل
وتنبت الحوائط القديمة
شواخصا من البشر
تلوغ فى دمى ! !
فأبصر الهواء والنجوم والسديم
مستشهدات فوق صدر شارعى القديم
فأدرك الذى انتهى
بأنهـا
طوال هذا العمر لم تكن معى ،

آية من ديمومة العذاب

آية من ديمومة العذاب

آى العذاب يجيىء من وطن تكسر ٠
من رذاذ الماء
خيل المعز تبوأت جسد الجراح
وتواكبت ليلا على خد الصباح
لم يبق الا أن تقولى
« كنانة » عشقت دماء الناس
وارتضت المساء
لم تبق الا ناقتان وجذوة
لخطى الصباح
كانت مجدلة الضفائر
ترتخى فى ساعدى
وتنحنى فوق الفراش
وتبتغى ربا يجشمها العناء

ثبت فى الميدان لى افقا
وقلت الحزن جلل خيمتى
وطلبت سائبة الضفائر
فارتخت تحت الوسائد غيمة
وعلى جذور الصدر أنهار الدماء .. لم يبق لى وطـن
سواك
لم يبق لى الا الغناء
فتداخلت فى النهر سابحة
وكانت خيلنا للماء تركض
تبتغى أفقا وترحل من بلاد
كل مافيها بغاء

— — —

سيف تثلم من جراح
سيف وكان الرب يخرج من مياه النهر
مغتسلا
ويطلق فى السديم بداية التكوين والانجاب
والأفق المباح
لكن نارا جللت وجة البسيطة
أعقبتها غيمة وخبا صباح
وضربت فى الملكوت من حجر الى حجر

وكنت أذود عن افقى
وأبحث عن مجدلة الضفائر
أصطفى منها الغناء •
شرس يهاجمنى بحجم الليل ذو الأظلاف
يفتح سد مارب ـ حاجباه
وينحنى فوق البرية صارخا
انى عشقت دماك ، فانتظر المساء
وتداخلت فى القلب منى شفرتاه وقاطعاه
وتسللت روحى لقلب الأرض
تضرب فى الجذور جذورها
نخلا وقمحا وعصافير ضياء
حدقت فى من قد يكون مهاجمى
فتشققت روحى جراحا من عذاب الصمت والصبار
وارتخت السماء •

كانت مجدلة الضفائر ثيبا
حسرت غطاء الرأس
وامتشقت حزام الرقص
وانتشرت تهز الردف
وابتدأ المساء

الصدور من فيض العشق

(١)

واحد مكتمل
عاشق ذاته
وأنا ممكن للوجود
غير أن الوجود هنا لا آحد

(٢)

تفاعلت فى
فقلت وحيـدا
لماذا يكون الوجود بدد
تقاسمت فى ملكوت التملك نفسى
انشطرت
وصار المشابه منى

فصرت أنا واجبا للوجود
وصار الوجود أحد

(٣)

تعاليت فوق العروش على الماء
فى سدرة المنتهى
أراقب فوضى نظام التفجر ثم التوليد
والنفس من فرحها تبتهل
مدارات ، أجسام ، أرقام ، أشياء كل الهيولى ملك
فصار الفراغ حياة
وصار الفراغ فلك

– – –

تغير عاشرهم فى التفجر والعشق
حتى القمر
أطل على الفلك المنتظر
هى الماء والترب والنار والريح
والفعل والمستقر

(٤)

امتزج
امتزج

امتزج وكن آية وانتشر
الترب والماء
طين ، نبات ، وماشية وجماد . بشر
النور والترب والماء
قلت همو الأنبياء الرسل
الترب والنور
والماء والنار والريح
قلت همو الشعراء الأمل
وأرخيت روحى لهم
نباتا يعشش فى كبد الأرض
بين النجوم ووقت الغضب
فأنتم ضمير اللهب
تنازلت عن كبرياء الملوك
وصرت لهم واحدا فى العصب
اصعدوا
فصاروا على درجات العروش
فأحضرت كل المفجر منى وقلت
اشهدوا
أنا لهمو أنتسب

فقالوا الى الأرض حتى نجملها
ونزيل التعب
فصرت أنا ممكنا للوجود
وصاروا همو واجبا للوجود
وكان الوجود استقر
وصار بهاء الهيولى صور
فاسجدوا يا بشر ٠

من أين يأتى البحر

من أين يأتى البحر

البحر شعر الأرض
تنشره الرياح على اضطراب
فى كل منعطف زبد
هل مرت السنوات بالأعمار
شـــاب ؟!

— — —

النهر قبلة عاشق
وضفتاه
شفتا الحياه

— — —

زمن يسافر فى المدرات التى نقشت عليها
النون نون الجميع

لم يبق سوى فرد الخواء
وبعض تعذيب الذماء
والنهر أحكم سرجه وطفت دماء
كان المضارع فاتحا كل الحروف على ضفاف
النيل منتصبا علم
وتوقف النهر الذى يسرى ألم
وأنا (أنيت) مضارعا
أبغى نويت مصارعا
لم يبق من تاء الأنوثة فوق كفيها
سوى نقش الخواتم فى أصابعها
وبعض الحيض فوق لفائف الدلتا
ونهـد ضامر
ونداء .. كم
لم يبق من هذا الجلال سوى بديع الحرف
نقش الطرف
سيف الزيف

ضم وفتح للبلاد
قل وتسكين لحرف

الرسم يعنى الجسم
لا يعنى الذى فى البحر
وكان البحر حقلا من سهول الزرقة الخضراء
يدكن فى الليالى المقبلة
والأرض فاتحة
وبين يدى صارت حاملة ؟

الجلوة الأخيرة

(١)

تمر القطارات ـ هابطة ـ فى أفول المغيب
وتجلو العصافير ـ صاعدة ـ فى الفضاء الرهيب
وتبقى الشجيرات ـ ثابتة ـ فى اهتزاز مهيب
وتسحب كوفية الحقل أطرافها لتدارى الذبول
وتدمع شمس النهار ـ لدى النظـرات الأخيرة ـ فوق الحقول
ويعلو على كوكب الصمت قرع الطبول

(٢)

النهر آت انه زمن بجيء
نزهو به ونعود من زمن الأفول
النهر آت انه شرب الدماء من الصحارى

ومن الدموع الجاريات مصب نيل
وارتوى وقت الأصيل
النهر آت يا صبايا يا ملاح
النهر آت يا شيوخ يا شباب
النهر آت فارفعوا أصواتكم بالأغنيات
ومن الصباح الى الصباح
وانقشوا أزهاركم
طفلا وطمثا ينتشى وقت الهطول
النهر يطلق ضفتيه ــ على المدى ــ قمحا
أصابعه نخيل

(٣)

هم الآن يستقطرون من القلب دمع الطفولة
يستحلبون من الثدى ماء الحياة
يجوسون فى الصدر بالقدم القاسية
يدقون حد الحدود على الضفة الباقية
وفوق الطلول
يقصون من باطن الأرض جذر الرجولة
يجيئون م البحر والسفن الراسية
يجيئون للنهر ــ كى يأسروه ــ وليس سواه
فيصطك سمع الزمان وسمع المكان بقرع الطبول

(٤)

النهر آت ، انه يهوى القرى
ويلف اصبعه على بوابة الطمى الغنى
يفض بكارة الصحراء
يطلقها لهيبا من حقول
فى موسم الفيضان ثانية يعود
يفض بكارة الصحراء والحقل الجديب
وما تعود أن يزور مرابعا
فضت على أيدى الغريب

(٥)

يا نهر عروسك تمساح
تمساحك قنديل
قنديلك اغريض
يضوى فى الصدر مواعيد
ومواجيد ومواويل
ولهـــذا
وحدتك فى الظلمة والضوء
وصدقتك فى كل الأشياء
فلماذا يركبنى الترحال
ويضنينى التسئال

وينفثيء القلب كبالون الأطفال
صـــوت
النهر نهر واحد
يبغى الوصول ولا يصل
نهر وحيد غاضب
متوحد لا ينفصل
فما أجبروه
وما قيدوه
وليس لهم جدولا من عسل

ـ خاتمـة ـ

النهر آت ٠٠٠٠ فارحموه
أكل الشباب وما تعود منكموا أن ترجموه
النهر آت ـ فى جلال الموت ـ
ينشد للحقول حكاية الموت الأخيرة
فاسمعوه
ـ الموت سيدكم
وتلك جنازة الأرض الكبيرة
فاسمعوا قرع الطبول

انتظار

انتظار

الثمار اذا اكتملت
نضجت
نضحت فى حزنها للبقاء •
فعاجلها القطف
والسكر الحلو فيها دواء
القصيدة من حزنها فرحت
ها هى اكتملت
وأنا مفعم بالنماء
والموت منتظر فى آخر الشطر
فى آخر السطر
قلت اكتملت اذا اكتملت
فعاجلنى الموت
حين خطط البقاء

المـرايا

المرايا التى من دماها الجموع
أراها محملة بالجياد
ـ فلا كاهنا كنت حين احتبست
ولا بائعا كنت وقت الشراء
ولكننى عاشق لا يقاوم
تجف براعمه فى السماء
وكنت حنينا ـ كنخلة قلبى
يجف على رئتيك الهواء
ـ أراها محدبة فى الزوايا
أراها مقعرة فى العناد ـ

ـ ـ ـ

قالت امرأتى فى المساء
تفتح زهر البنفسج

تبرعم في دماء المرايا
أرى وجههم في الدماء
قلت هلم اقرئي
قالت يكون الذى ترتجيه
ويأتى الذى لا يجىء
وتقبل كل العواصف
ويرحل هذا المساء
قلت ففى الأرض متسع للجميع
وقلبى بنفسجة للسماء
ـ تطاير من حافر الخيل ومضى الشرار
وعز على القلب صوت النداء ـ

ـ ـ ـ

قرنفلة أنت يا امرأتى
تزيدين بهجة هذى الدماء
قرنفلة مالها من مثيل
قرنفلة فى ثياب السماء

ـ ـ ـ

فراشين كنا
فصرنا فراشا

وصوتين كنا

فصرنا غناء

هو النهر يطرح طميا جديدا
يلقح كل الصحارى
ويفرش فوق البرارى زهور الهناء
هو القمح يطلق حد الرغيف سلاحا
فيكبر فى الطفل شوق الغناء
ـ فلا الضوء يحجبهم عن عيونى
ولا الرمل يحبسهم فى الرجاء

بعيدين كنا
وأنت فتاتى
وصرت مع الورد أم الهناء
تعودين من عقمك الآن يا امرأتى
ويصبغ ثوبك طمث ، ... دماء
تعودين من كوكب لا يكون
أعود من الجدب والافتراء

ألقح رمل الليالى مليا
وأثقب فجرا ثياب الحياء

تعود الجياد الأصيلة للبر من بحرها
تعود العصافير ـ تلك التى أسكتت ـ للغناء
تعود النباتات حتما الى حقلها
تعود الزهور ، وينفى المساء

وبابين كنا بصدر الليالى
تهرأ فى القفل منا الرجاء
فصرنا على النهر زهرة دفلى
وجدول طمى خصيب الدماء

أخاف المرايا التى تتحدب أو تتقعر
أحب المرايا التى تستوى
مرايا تخبىء فى ذاتها حلمنا
مرايا نبعثر فى عمقها ذاتنا
فتخرج من صدرها ضدنا
هو النهر لامسها مرة

فصارت بكارة حلمى الذى ينطوى
وصارت براعم ورد على معصمى

— — —

يفاجئنى الطمث بعد انقطاع
هو البئر نز بماء وماء
تداخلت فى النهر عشقا وفعلا
وطميا ، تناسل فى جانبى الرجاء

— — —

ولأنك أنت هناك

ولأنك أنت هناك

يا هذا الآتى آقبل
انى أنتظرك فى شوق النار
وشوق النار على شوك القنفذ فى وسط العين يناديك
انى أعرف رسمك
اسـمك
آنتظرك منذ تواجدنا فى هذا المستنقع
تلمع فى قاع الكأس ثوان ثم تروح
تتلألأ فى ثوب الشمس ثوان ثم تروح
توشوشنى بالشعر اليك
وتوعدنى بالسفر اليك
وترسم فى الليل حقائق ووعود
فلماذا لا تأتى ؟!

— — —

أفتح نافذة النار الغربة
أجول بهذا العالم
أخرج من قشرته مصحوبا بحليب الكون الأزلى
على صحراء البدء

هنالك

يغمرنى الفجر الأول فى صمت البهجة
ويناديني أول عصفور مبعوث منك
بزقزقة الحب الأولى

ويعذبنى أنك أنت الآتى
أرقب فى وجل سر تفردك
وطول تباعدك
ذاكرتى تتشكل فى رسمك كونا عملاقا

أى

أنت بكارة هذا العالم
وأول ما بذر من الحب
وأول ما عشق الطين
وأول جذر شق الأرض

فصـــار الطين
منازل وجبال وحدائق ونخيل
فانبجس المـاء

وتطاير شرر النار
ولأنك منذ ولادتنا من رحم الأرض
الشوق النارى المفعم بالورد وبالزعتر والنعناع
ولأنك أنت الثاوى فى الأعماق وفى الأوجاع
ولآنك أنت هناك
لا يحجبنى عنك غناء
فأنا غنيتك أولادى
باسم الأرض النيل تعال
باسم الانسان المسحوق على مائدة العصر تعال
باسمك يا ذات البدء تعال
يا من قابلتك عند بداية هذا التكوين السحرى تعال
شفتاى تشققت الآن نداء
وعيون الدهر المملوءة بالأطفال تناديك صباحا
وحقول الحنطة لوثها الدم التترى ، وزوجهما للفحم
وأسقط بيروت وقسمها فوق موائدهم
ودعم كل كراسى العرش بجثث الآطفا ل الغد ـ
وأوثقنا بسلاسل من رعب الخوف
وألقانا فى جب الموت
ونادانا ألا نحلم بالآتى

ـــ ـــ ـــ

لكنى تضطرم النار على شفتى
وتقعى فى جسدى
ففككت وثاقى ، وتناثرت على الطرقات
وألهبت خيوط الشمس
وتواريت هنالك فى جذر الشجرة
وتبرعمت بكل زهور النار
وناديتــك
يا هذا الآتى أقبل
انى أدعوك لتكمل دورة هذا الانسان المقتول الحى
انى أدعوك لتنفخ فيه جنين الثورة كى يحيا
ولهـــذا
سأظل أناديك
أناديك
أناديك

صفحات من أوراق عاشق

(١)

تمر الحمامات نحو المغيب
وتمضى
وتمضى النوارس نحو المصب
وتهفـو
وتهفو ليوم سعيد
وتهفو القلوب لرحلة حب جديد
وأرقبها من خلال الجدار
ومن كوة أحكموا قفلها بالرتاج
وأحلم يوما جديدا سيأتى
ومفتاح بابى سيفتح هذا الرتاج

(٢)

أعد الخطوط التى قاسمتنى بحجرة موتى
وأرقب رحلتها من خلال الجدار
تعانق زنزانتى فى انبهار
فأعرف أن وراء الظلال
لهيبــا ونار

(٣)

يعود المساء ثقيلا ثقيلا
ككل مســاء
ويفتح نافذة فى الجدار
أعانق منها ديار بلادى
ديارا ديار
أزور بيوت المحبين
دارا فدار
فأعرف أن وراء الجدار
قلوبا على أمل وانتظار

(٤)

يهز الصباح الندى كيانى حتى الشغاف

فأذكر صبح بلادى
وأذكرهم فى ليالى الجفاف
وكيف يمدون يدا ليد
وكيف يجدون جدا بجد
ليندفق الماء فى كل مد

(١)

ما بين ضوء وضوء
فصول من الذكريات
ومعتقل للهواجس
وتفاحة ثقبتها الرماح
وعصفورة بللتها الرياح
بحزن المطر

ـــ ـــ ـــ

وحيدا أجاهد أسرى
على حد سيف التوحد
« كانت الأرض غارقة فى مياه المحيط
والظلام استوى حارسا ـ فى الجدار ـ

والسهام على وشك الانطلاق
والقلب قد ثقبته الخيانة »
أقلب ـ ما بين خيطين ـ جفنى فى تعب
فأرى الأرض خارجة من دمائى تفاحة
وأرى الورد لا ينتمى للبشر

حين جف دمى فوق مركبه متعبا
سار نحو البدايات متجها للنهايات
مفتتحا للمحيط انتماء الشجر

(٢)

لج هو البحر أم لجة
موت هو الموج أم رحلة
قلب على سطحه راحل
قلب به قلبى تعلق والندى موت
لا سكة فى الليل تعرف
لا طريق لديك فى وسط النجوم
لا على يدك اليسار دليل نجم صادق
ولا على يدك اليمين وصية
وتركت « حضرموت » من قهر
الى أين المسار ؟

تعب تعبت وفوقه وجع
والصوت صمت كالح خرس
والعين والأذنان خلفى فى الأزقة
والمدى نصب
قلت الرحيل عشقته يا أيها النزق
عل يفرج كربتى سفر
قلبى مواجيد التمنى
والحبيبة فوق شط الموت عاشقة
وأطفالى مؤجلة
قلت الحبيبة « حضرموت » فمن ترى عشقت ؟
عشقت جهارا عشقى الوجع
عشقت نهارا خطوة الزبد
فى الليل تبكى ـ فوق صدرى ـ حلمها العجل
لكنهم جاءوا ! !
ما كنت تدرى أنهم جاءوا ؟
قال ما بعدها ركبت زورقا
ـ كان دمى مزهرا فى مياه المحيط
طائرا دمويا يجاهد أن يلحق الزورقا ـ
قلت لكنها أعطت الآن تفاحة للغريب
وأعطتك حنظلة

واتقت أن ترى عينها
قال : قد جاوز الظالمون المدى
والمدى مقصلة

(٣)

كان برج الهوى مجهدا
والقلب مرتعش فى مهب القذى علما
غادرتك ببعدك عن شاطئيها
وألغت مواعيد عشقك من ساعديها
وأرخت بساتينها فى المدى ألما
وكان على عرشها مفردا

– – – –

ما كنت صدقت الرواية
من يذبح الورد النضير على موائده ؟
ذبح الورود جريمة ، والورد مسؤول وقلبى غاضب
ودم تبرعم فى الخليج
ودم تبرعم فى المحيط
ودم تبرعم فى الجليل
ودم تفرق فى البقاع
ومطاردا حتى النهايات البعيدة فى البحار

– – – –

عشق تبذل
من يبدل عاشقا بالمغتصب ؟
عشق تبدل
صار صك محارب للمشنقة
موت تأله فى دمى
موت تعانق فى ترابك « حضرموت »
موت بلا ثمن
فما ثمن الرحيل
غير التباعد والذكر

(٤)

قالت قرنفلة بوادى الجمر
مال على مسلوب الشراع
ومضى يقول السر ، يوصينى بمركبه
ويوجعنى بقبلته ــ التى وسعت بحارا
قال السلام على البحار ، أتيت مهزوما
قلت السلام عليك ، لا تأس على ورد تفرق فى دمى حتى القرار
فمضى يتمتم : انهم آتون فى ليل الزناة
فلا تنامى واحذرى فجرا كذوبا يدعى أولاد عم أو نهار

فتشيأت نفسى غلاما صار يسرى جدولا
بين الحجارة والمحار

« ليل كئيب موحش ، وأنا وحيد
قط يموء بحارة ، كلب يبول على جدار
صوت يعذب لحنه يسرى ملائكة صغار
فلا رفيق ولا أحد ، وأنا وحيد

— — — —

الشارع المسكون أوسع فى الظلام
« وأرضه خشب تقرقع ـ تحت خطـوى ـ ألف جيش
سائر خلفى »
وآخره جدار

والليل أوسع من بحار الأرض
يقذف فى الأزقة رعشة الخوف المدمى
والهواء المر أصلب من قراصنة البحار

فتشيأت نفسى هلالا فى ظلام الليل
يفتح سكة للتائهين ، ورعشة فوق الكمان ،
ووردة تحت الندى ، ورغيف خبز طازج بيد الصغار
لكنهم جاءوا سحابا كاثفا حجب الهلال
وأمطرت قيحا وأسلحة دمار
فتشيأت نفسى ضياعا فى محيط الليل

ينزح للقرار
ولا قــرار

(٥)

كان ما بيننا لا ينام
والبحر أغنية لا تمل الشواطىء ترديدها
وأنا واقف أستحم بموجاتها
والضياء يجاهد بين الغمام

كان ابن ماجد عائدا من صلبه ، فى المخضر السرى
سرقوا منه بردته ، ووشما كان فوق زراعه
وعيونه فقئت ، وقصوا شعره
وغيبوا عنه المسار
فتعثرت قدمى به
فصرخت أسفا عليك
فقال لا أسفا ولا حزنا ، فأسرجت الفتيل بقلبه
فرأى بقايا مركب نخر ، وأشرعه تهاوت
« قد تآكل نصفها »
ورأى البحار تجف من وله وتطوى سرها
فمضى يدمدم ثائرا
وجه هو الليل أم بردة للسفر

أم هى الأرض أم جثة من سبايا التتر
حضن هو الكون أم غاية المبشر
نور هى الشمس أم قطرة من سفر

(٦)

يفاجئنى الحزن بين خيطين
خيط الشروق
وخيط الظلام
والندى أدمع فوق هذا الرغام
وأنا واقف لا أنام

– – – –

لم يظهر الآن شيء يبدد من وحشتى
وأنا أتهيب من وردة فوق ملح الشواطىء واقفة تشهر
الآن تويجها فى مهب الرياح ، تخرج أعضائها فى المساء
وتدعو النجوم لتقبيلها »
لم يظهر الآن شيء على جثة الرمل
لم يظهر الآن نجم على بردة الليل
قلت أحادث نفسى
أنادى ابن ماجد
يا راحلا فى البحار

علام الرحيل
البحر معتقل بالشواطىء
والحلم عاد قتيل
كان موج البحار عيونا تجاهد من وطأة للنعاس
والبحر يرمى زراعيه فوق الرمال
يردد موج البحار ندائى « حين تلامسه الـريح تزداد تجاعيده وتغنى له »
يا راحلا فى البحار
أتم الرحيل
فالموج معتقل بالرياح
والبحر عاد قتيل

(٧)

القلب صار حديقة أو مركبا
والبحر عاشـق
والنجم أزهر فى دمى
وعرفت سر الموج طرا
لم أفارق
الا المخاوف ينهمرن على الرمال
ولم أعانق
الا حليب الروح فى قلبى

فليس الآن الا أن أفارق
فعشقتها فى البحر فاتنة
وقوم حولها جزر
من الموت المعانق

– – – –

كانت على عرش
وكنت على الشراع
تشكو توحدها
وكنت أطبب الأوجاع فى قلبى
« غريب عن بلادى يا بلادى
وصوت القهر يقهر من تنادى
« وحضرموت » مات الحب فيها
فهل بقيت على أمل التلاقى
غريب عن بلادى يا بلادى »

– – – –

أعشقت فاتنة مليكة قومها ؟
اعشق فبعض العشق وجد
وأغرس بقايا مركب فى أرض قلبك « حضرموت »
واهزم رجال عشيقة عشقت

وأغرس شبابك فى تراب مغتصب
وأكتب وصيتك الأخيرة بالدماء
وأملاء بلادك بالصبايا والشباب
فالغرس أطفال الاباء

– – –

القلب عبد الوجد ، معشوق الدماء
رست المراكب مرة أخرى ، وكان الشاطىء
المختار رغما « حضرموت »
وتبدلت أرض
وتفرقت أمم
وتبدلت لغة
وكان الأمر قتل
« تعبت بقايا مركبى تعبت
وعظام قلبى كلها تعبت »

(٨)

القلب يسأل والجواب مشانق
« وحضرموت » تحدثت لغة غريبة
لم يسائلنى أحد
حتى التحية والسلام

قلت السلام عليك يا بلدا عشقت
فاحت جبال الخوف
واندكت على سكانها من بعد ـ
أبراج الحمام ·
قلت الرحيل
قالوا رحلت ، فما رحيلك للتجارة
قلت الرحيل لعاشق
فالبحر معبود الجسارة
قالوا رحيلك متعب
قالوا بقاؤك متعب
من أنت
قلت أبن ماجد !
« كم قلبوا فى دفتر كتبت عليه عبارة عبرية
لم يستدلوا عن هـواى
ولم يصادفهم دمى
قالوا غريب
من أى البلاد أتيت مدفوعا لتسلبنا الامارة
قلت البلاد بلادنا ! !

من أين أنتم ؟ !
قالوا تجلد فالموت معشوق الحضارة

- - - -

كانت ورود البحر تشهق فى دمى
والخيل يركض فى المحيط ويغرق
والفاتنات يبعن أثداء قتلن
وفى الغريب تعلقت
فنشرت فى جسد الجبال عبير جسمى وانتشرت
ماذا جنيت ؟ !
وقد جنى أحد
لم يجن ما يبقى
لكنه موت قد جاوز الجسدا
فى يوم موكبنا قد صار منبطحا .

(٩)

وسكنت دارى لا أبارحها
فقد شنقت ورودى فى المساء
وفتحت نافذة على التاريخ
كان البحر لجيا
وكان القلب مركبه
وكان يعيد رحلته ويبكى فى المساء

البرد معتقل الهواء
وأنا وحيد فى ليالى القهر
يتعبنى النداء
الجوع أنياب الذئاب تكاثرت
والموت مرشوق على أفق العزاء
لا صديق لديك يؤنس وحدتك
لا عشيقة فى ليالى البرد
تذهب عنى لياليك الشتاء
لا خمر ، لا حتى لفافة تبغ
لا نقود ولا هواء
وحدى مع اللاشىء مصلوبا وصامد
والسماء لدى السماء تسربلت خلف العمائر والمعابد
لم يبق من نجم تخاطب أو تعاهد
وحدى ووحدى واحد أحد
وحدى ووحدى ضائع أبد
وحدى ووحدى فى محيط الليل سائر
القلب مركبنا
وهذا البحر ثائر
يا ابن ماجد
يا ابن ماجد
يا ابن ماجد

أبي

(ديمومة الحضور الغياب)

لعلك حين رحلت
استرحت
وحين انتقلت
عقلت
الأمور التى لم تزل
تشكل فى الماء فى زلزلات الخواطر
جسر اللهب
لعلك أمسكت كل الحقيقة
بالقلب والساعدين
لعلك

فهل أنت كنت مصيبا معى ؟
وهل أنت كنت الحقيقة ؟
ترى أى شىء ؟
أم الموت
لا شىء يعنيه الا الجهامة
(كخيل تغوص بأعبائها فى المحيط)
ودون علامة
ودون اجابة
سوى أنه الموت تلك القتامة

جرونيكا .. تونس .. فلسطين

جرونيكا .. تونس .. فلسطين

ماذا يزاوج بين مقتول
وقاتله
دمه المراق وخنجر الذبح
وتبرعم الخوف الموزع فى تخوم النفس
يصطاد الأمان
ويشحذ السكين فى كفيه ـ ياكفيك ـ
يكفيك الدماء
حدق حدق
حدق فمازالت على آبوابنا جثث من الأعداء والأحباب
أبراج الكنائس والمساجد
أصوات ثاكلة وطفلة
وتعاتبت فى الأفق غيمة
وحدق المقذوف فى المقذوف فى حظر التجول

والتجول سر ما فى القلب من تعب
وما فى الكون من وجع التحول
لو أن ميعاد انتظار العشق فوق خرائط الأحباب يظهر!!
لو أن قلبى لم يزل طفلا
لعانقنا التجول والتحول والحضور

لو أن أفراحا تطول ؟
ها أنت تعتب فى التمنى
تستنيم مع الرجاء
من أين لو ؟
من أين افراح تطول ؟
(وتمكن السكين من صدر الضحية)
وتراشقت فى الجو مذبحة بمذبحة وطفلة
وتناثرت فى الأفق غيمة
والنهر لا يبغى الاجابة
قالت رمال الدم فى عنق الخلاص
ملت دمائى من تجاعيد الرصاص
لو أن جذرا عانق المصفر من دمنا
لخاض
أرضا نريد لها المخاض
لو أن

الحصـــار

النوم معجزة
القناديل قنبلة
تحاصرنى فى المدى الأسئلة
وروحى الشفيفة شك
وموتى افك
حياتى أغنية حائرة

وقلت لها فى المساء الثقيل
تعالى فانى أعددت زنبقة من بنفسج للعشق
لا يعتريها الزوال
تعالى فانى آتيك رغم الزمان المحال

قالت تعبت من الانتظار ،
وكل الزهور تجاهد فى حضرة الاحتضار
وأن الرمال التى حاصرتنى
تعانقنى الآن تردم كل البحار
الورود حرائق
البيوت خنادق
الدماء ‥ الدماء ‥ الدماء ‥ الحصار
الهواء مشـــانق
الشوارع مخنوقة بالبيارق
والمساء الصباح احتضار
قالت : شربتك فى جنياتى روحا جنينا حنينا الى
الاخضرار

وكنت انتظرتك ثانية فوق ماء البنفسج ،
وكنت انتظرتك ثانية فوق ماء البنفسج ،
عند ورود الحديقة ،
قبل مغيب النهار
تأخرت حتى تراخت عيونى م السهد
أحلم ثانية بدماء المخاض
فأورثنى الحزن فقدك

فاتكأت بنهدى فوق مياه المحيط
تكسرت اللغة الأبجدية
فالنهر مقبرة ، الشواطىء قاحلة فى مـداها السـواد
السواد

– – –

الموت قافلة
النهر عطبرة
البنفسج محض افتراض
أفتش بين الحروف عن الشق والوجد والانتفاض
رأيتك حرفا تعلل بالجيم والنون ، والحاء والباء
فقلت غدا يحدث مزج
وتصبح حلما وتطلق سرك فى الشـاطئين نماء يفرق
سرب الجراد
تلكأ حرف ، تعلل حرف ، تلعثم حرف
تعاندنى اللغة العربية – روحى – وتبعث فى اتقاد
لماذا تعاندنى عاشقتى ؟
اذن : تلوثت اللغة الأبجدية قاطبة
فالنجاة ... النجاة ... اتحاد

– – – –

تبعثرت الآن نفسى بين الرمال ، أجمعها ، وأجملها

وأصوغ بها جوهر الحلم ، بين اقتراب وبين ابتعاد
أحاذر من سقطة البين بين
أحاذر من سكرة أو رقاد

- - - -

النواقيس مجزرة
الحدائق معتقل
الشوارع قنبلة
المنازل قاتلة
النوافذ خادعة
الأسرة أوبئة
والوجوه التى رافقتنى ماكرة
والبحار التى حاصرتنى صالبة
والرمال التى عانقتنى شاربة من دمائى ماء الحياة
وأنا
صرخة الحلم ، زنبقة فى وجوه الغزاه
فالنجاة ... النجاة ... النجاة

- - - -

أمنيــة

أمنية

لدى الليل كل الأحبة ناموا
ولم تبق الا أصابعك الآن مشغولة بالرعود
وخبزك جف من الألق المتدفق من ناظريك بروق
وأنت كما خلق الله بين رعود وبين جنون
وحيدا كما خلق الوعد مزدهرا بالمواجد

مؤتلقا بالجراح على مهجة الروح

بين غروب وبين شروق
اله الشطوط التي لم تزرها السفائن
اله المعادن

تخفت ببطن الجبال كسر الخليقة
اله الحقيقة

تحاصرني المبهمات الغوامض
تحاورني العاديات الجسام

يحاصرنى الجذر يصبح موج البحار حسام
اذا الليل نام

اله الذين على الأرض ماتوا
وكانوا يودون أن يخلدوا فى السماء
اله الرجاء

تخربت الأرض ، لم تبق الا العيون الشوامت
ولم يبق فى الأرض الا ـ الحقود ـ النجوم السواطع
تراقبنى بالعيون الجواحظ
وتثقب روحى بسر الحديد
لدى الأرض كل المعادن سالت

على أفق الروح حقد انصهار
وضيعت الروح أعشاشها
وطــارت
وحطت
وحطت على الماء راحت

فهل جاءها واستراحت ؟ !
اله السكوت السكون الكلام
اله الظلام
اله الحروب السلام

اله الحمى والحمام الحمام
آريد أنام
أريد أنام
أنـــام
أنا ا ا ا ا ا
م م م م
أ ن ا ا ا
م م م م م

في القصـيدة الحـديثـة ..

.. من يتحـدث إلى من ..

بقلم : د. أحـمد درويش

« ما الشعر ؟ » سؤال كان يبدو فى تاريخ النقد الأدبى القديم والوسيط قابلا للطرح والمناقشة ، وكانت الاجابة عنه تبدأ عادة بتحديـد مجموعـة القـواعد الضرورية التى ينبغى توافرها فى القول الذى يطمح فى الانتســاب الى ذلك الجنس الأدبى الخالد · كـانت أصول الوزن والقافية ـ ومازالت ـ أكثر هذه القواعد طواعية للتحديد ، وأكثرها اغراء على اصدار الأحكام بأن مابين أيدينا يمكن أن يدخل فى دائرة الشعر أو يخرج عنها ، ولكنها كانت فى الوقت ذاته تترك الباب يلف على عقبيه ، يمكن أن يغلق من حيث فتح ، فقد يستوفى الكلام شروط الوزن والقافية ثم يحكم عليه بأنه

مجرد « نظم » أو يفتح من حيث أغلـق فيطمح بعض الكلام الى أن يدخل فى دائرة « الشعر المنشور » لوجود خصائص أخرى غير الوزن والقافية فيه ، ومع ذلك فقد ظل هذا الباب « المفتوح المغلق » أكثر أبواب الشـعر احكاما !

كانت هناك أبواب للخيال ، سواء ما يتصل منهـا بطبيعة الشعر أو بتراث اللغة التى ينتمى اليها ومن هذه الزاوية الأخيرة دخل فى تاريخ النقـد العـربى ما عرف « بعمود الشعر » حين قنن النقاد المسار العـام الذى ألفه الشعر فى هذه اللغة ، والصور الجزئية التى جرى « غالبا » التعبير من خلالها ، واتخذوا من مجمـل هذا بابا أضيف الى باب الوزن والقافية لكى يصفى من خلاله ما يمكن أن يدخل فى اطار الشعر ٠

ومع أن « الخيال » كان يمكن التسرب منه دائما الى الحديث عن « اللغة المصورة » باعتبارها أيضا من ملامح الشعر الا أن تحديد « اللغة الشعرية » ظل من أصعب المها التى يواجهها النقد الأدبى وظلت معرفة الخصائص التى تختلف فيها عن « اللغة النثرية » تحس أكثر مما تحدد ، وتعرف عن طريق السلب أكثر مما تعرف عن

طريق الايجاب (١) .

ولم تخل « الموضوعات الشعرية » من اهتمام النقاد عندما كان يراد تعريف الشعر ، وقد يتمثل ذلك الاهتمام فى شكل صارم أحيانا كالذى اكتسبته طبيعة الموضوعات فى التراث المسرحى الشعرى عند الاغريق والرومان وامتداد ذلك الى العصور الكلاسيكية ، حيث تبدو طبقة الأبطال محصورة فى الآلهة والنبلاء ، وقد يتمثل ذلك فى « اتفاق ضمنى » يسير عليه الشعراء ويألفه الذوق ، كالذى ساد فى كثير من الشعر العربى القديم بعامة والوسيط على نحو خاص من دورانه « خارج الذات » فى كثير من الأحايين ، ومن صب اهتمامه على « طبقات معنية » أو « موضوعات معنية »، ولم يكن من السهل أن يتطور الشعر من خلال موضوعاته التى ألفها الذوق المتلقى (وهو عنصر هام سوف نعود اليه) ولقد احتاج الأمر فى الشعر الأوروبى مثلا لكى تقوم ثورة كالثورة الرومانتيكية ، يدخل الرعاة من خلالها الى ساحة الشعر ، أن تسبقها ثورة كالثورة

---

(١) لعل من أنضج المحاولات لمواجهة هذه القضية فى تاريخ « النقد الأدبى الحديث » ما قام به الناقد الفرنسى جون كوين فى كتابه «Structure du Language Poetique» والذى ترجمناه الى العربية لعنوان « بناء لغة الشعر » وصدر فى القاهرة ١٩٨٥ .

الفرنسية يدخل الخبازون من خلالها الى ساحة قصر فرساى ٠

ومع ذلك فان الثورة ـ فى الموضوعات الشعرية ـ التى أحدثها العصر الرومانتيكى ، والتى وجدت صداها فى الشعر العربى فى فترة لاحقة ٠ لم تلبث بدورها ٠ أن تآلفت مع الذوق العام لعدة أجيال ثم تجمدت، يقول رومان جاكويسون: ان قائمة الموضوعات الشعرية فى العصر الرومانتيكى كانت محددة ، القمر، البحيرة ، العندليب ، الصخور ، القصور القديمة ، وحتى الأحلام الرومانتيكية كانت تتحرك فى نفس الدائرة ، « لقد حلمت بأننى أسير بين الأنقاض ، وأنها تداعت من أمامى ومن خلفى ، وانكشف الغبار عن أرواح انسانية تسبح وتحترق ٠ كأن عاشقا يبحث عن عشيقته بين القبور ، ثم بدا لى قصر ذو نوافذ قوطية ٠ هكذا كانت النوافذ الشعرية « قوطية » ، واليوم كل النوافذ تصلح أن تكون شاعرية بدءا من واجهات المحال الكبرى ، حتى زجاج المقاهى الريفية المغطى بالذباب » (٢) ٠

ان الثورة التى حدثت فى « الموضوعات التقليدية » للقصيدة ، وجعلتها تمتد الى وصف الجيفة عند بودلير

(٢) Roman Jakobson, «Huit queslions poeliques» Paris 1977.

وملاحظات عابر السبيل عند العقاد ، والمترو وقهـوة الصباح وجريدته عنـد جاك بريفير ومن بعـده نزار قباني ، وآلاف الموضوعات واللاموضوعات غير المتناهية في ديوان الشعر الحديث والتي تبلغ قمتها عند الداديين والتكعيبيين والسرياليين ومدارس الاهتمام بالشـكل الخاص ، هذه الثورة أعطت للقصيدة الحديثة مجالا كبيرا للحركة في الوقت الذي وضعتها فيه في مأزق دقيق ، ذلك أنه وقد تحطم السياج الخارجي الذي كان يمـكن أن تكتسب القصيدة بمجرد الانتماء اليه « مسحة » من الشاعرية ، أصبح عـلى كاتب القصيدة الحديثـة أن «يشعر» الموضوع الذي اختاره ، لأنه في الأصل موضوع محايد · يمكن أن يعـالج من زوايا مختلفـة شـعرية وغير شـعرية ، وهو في ذلك كله مطالب بقـدر كبير من الحســاسية في دقـة الاختيـار ودقة التشــعير وأحـداث اتصــال مـع ذوق المتلقي من خــلاله اثارته بالعزف على نغمة يألفهـا أو الامسـاك بخيوط دقيقة يقـوده من خـلالها الى مجـال آخـر لم يألفـه ويشعره بمناخه ، ان فن القصيدة هنا يمكن أن يقترب من فن « النكتة » وقد كان القدماء يتحدثون عن الملمح الفني الجيد في التعبير على أنه نكتة بلاغية تروى النكتة الواحدة من أشخاص عديدة من تثير من أحدهم الضحك

ومن الآخرين الفتور وقد تثير الاشمئزاز من شـخص لا يجيد تناول « موضوعها » فيفسدها ، وهى فوق هذا كله تختلف حسب «ذوق المتلقى» من مجتمع الى مجتمع، فتعنى شـيئا خطيرا فى مجتمع ما ، وباهتا فى مجتمع آخر ، وقد لا تعنى شيئا على الاطلاق فى مجتمع ثالث ، وكل ذلك عندما ندخل فى الاعتبار ــ ولابد أن نفعل ذلك ــ الطرف الآخر للفن ، وهو المتلقى ، وهو طرف يحتاج مدى الاهتمام به فى القصيدة العربية الحديثـة الى مزيد من الاهتمام ٠

ان وسائل تشعير الموضوع العادى ومدى التوفيق فيهـا تبدو متعـددة فى الديوان الذى بين يدينـا ، ولا يستطيع القارىء فى البدء أن يفلت من أسر قصيدة جيدة لصلاح والى مثل قصيدة « الجلوة الأخيرة » ٠

تمر القطارات ــ هابطة ــ فى أفول المغيب
وتجلو العصافير ــ صاعدة ــ فى الفضاء الرهيب
وتبقى الشجيرات ــ ثابتـة ــ فى اهتزاز مهيب
وتسحب كوفية الحقل أطرافهـا لتـدارى الذبول
وتدمع شمس النهار ــ لدى النظرات الأخيرة ــ فوق الحقول
ويعلو على كوكب الصمت قرع الطبول

ففى هذا المقطع السداسى الذى تتقاسمه قافيتـا الباء واللام • الساكنتان ، ويسير على تفعيله المتقارب السريعة الايقاع ، تقوم لنا الخيوط الأولى للصورة فى لقطات تتعارض ولكنها تتداخل ، تمر عابرة ولكنهـا تبقى • وقد اختارت القصيدة الفعـل المضـارع الذى تكـرر ست مرات فى بدايات الأبيـات الستة لاعطاء الايحاء بثبات المشهد وتكرره ، وفى المقابل اختارت التعبير بالحال فى الأبيـات الثـلاثة الأولى (هابطة ــ صاعدة ــ ثابتة) ليعبر عن تغيرات تقابل الثـوابت ، وبدا التوازن فى الحركة محكما بين الهبوط والصعود والثبات لولا ما يبدو من ايماء خفيف بالتعـارض فى البيت الثـالث بين الثبـات والاهتزاز ولو حـل محله (وتبقى الشجيرات ثابتة فى شـموخ مهيب) مثـلا ، لاتسق التوازن الى مدى أبعد ، على أن موجة التوازن من خلال التقابل تتوجها لمسة أخـرى فى خـلال هذا المقطع عندما تتنوع المصادر الحسية للصورة ، فهناك الصور البصرية بايحاءاتهـا التى لا تحـد وبمجموعة الألوان التى يمـكن أن تثـار فى خلفيتها (القطار ــ الأفول ــ العصافير ــ الفضا ــ الشـجيرات ــ الذابلة الشمس ــ النظرات ــ الحقول) ثم بعد هذا كله تأتى

صورة تنتمى الى مصدر حسى آخر هو السمع : « ويعلو على كوكب الصمت قرع الطبول » فتوسـع من دائرة الورافد الحسية للصورة ، بالاضافة الى أنها توسع دائرة التصـوير ذاته عنـدما تترك دائـرة الحس البصرى والسمعى التى عرفت كيف تنهل منها ، وتشارف دائرة التجريد من بعض الزوايا عندما تشـير الى « كـوكب الصمت » ٠

من هذا المقطع السداسى السريع الايقـاع تنتقل القصيدة الى مقطع آخر تغير فيه ايقاعها ، وذلك منهج يلجأ اليه الشاعر كثيرا فى هذا الديوان ، فيغير التفعيلة داخل مقاطع القصيدة الواحدة ، وأحيانا يغيرها داخل أبيات المقطع الواحد ، وهو تغيير يبدو فيه تحكم الشاعر فى التفعيلة وعدم تحكمها فيه ، وهو ينتقل هنـا من فعولن ، الى متفاعلن فى المقطع الثانى :

النهر آت انه زمن يجىء

نزهو به ونعود من زمن الأفول

النهر آت انه شرب الدماء من الصحارى

ومن الدموع الجاريات مصب نيل

وأرتوى وقت الأصيل

النهر آت يا صبايا يا ملاح

النهر آت يا شيخ يا شباب

النهر آت فارفعوا أصواتكم بالأغنيات

ومن الصباح الى الصباح

وانقشوا أزهاركم

طفلا وطمثا ينتشى وقت الهطول

النهر يطلق ضفتيه على المدى قمحا ٠٠ أصابعه تخيل

والانتقال لا يتم فقط على مستوى ايقاع التفعيلة الذى يهدأ ، ولكنه يتم كذلك على مستوى وسائل التعبير والتصوير الأخرى ، ومع اتباع النغمة الأولى التى تحافظ فى وقت واحد ، على عناصر الثبات والتغير ، واذا كان المفتاح التعبيرى هناك هو « الفعل المضارع » الذى تكرر ست مرات ، فان المفتاح التعبيرى هنا ، هو اسم الفاعل : « النهر آت » ، الذى اتخذ شكل الايقاع المتكرر ، ومع أن المقطع هنا غير سداسى فان كلمة « النهر » تكررت أيضا ست مرات فى هذا المقطع ، مما

يشير الى وجود نمط نسقى متوازن بين المقطعين ، وفى المقابل فان اتجاه الحركة يختلف فى المقطع الثانى عنه فى المقطع الأول ، واذا تصورنا نقطة محورية يتم من خلالها رصد المشاهد فى المقطعين فان صـورة المقطع الثانى الرئيسية والمتكررة « النهر آت » تبدو وكأنها تتحرك الى هذه النقطة وتتجه نحوها لتصب فيها ، على حين كانت تبدو صور المقطع الأول وقد اتخذت اتجاها مقابلا ، فهى تبدو وكأنها تتحرك من هـــذه النقطة وتبتعد عنها ، فالقطارات تهبط ، والعصـافير تصعد والنهار يأفل وكل شىء يتحرك فى اتجاه الرحيل .

من يتحدث فى القصيدة الى من ؟ ان هذا السؤال كان يبدو بسيطا فى القصيدة التقليـدية حيث كانت شبكة الضمائر « آنا ونحن » أو «أنت وأنتم » أو «هو وهم » واضحة المعالم وضوحا نسبيا ، وعندما يقـول المتنبى :

يا أعدل الناس الا فى معاملتى
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أو يقول :

أنا الذى نظر الأعمى الى شعرى
وأسمعت كلماتى من به صمم

فاننا نستطيع أن نحـدد فى المسـح الأول مواقع الأشخاص على خريطة الحوار ، وان كان الانصاف أن يقال ، ان استخدام الضمائر فى القصيدة التقليدية الجيدة لم يكن بهذه الدرجة من التبسيط ، ولكنه كان مشبعا باشعاعات متعددة الأضـواء حـول الامكانيات الدلالية للضمائر ومدلولاتها فى اللغـة ، والذى يقرأ تأمـلات البلاغيين القدماء وعلمـاء اللغة من أمثـال عبد القاهر الجرجانى وابن جنى ، يجد نظرات دقيقة فى أسرار الاستخدام اللغوى ، أعتقد أن من حق اللغة على شعرائها الجدد أن يلموا بها ・

ان شبكة الضمائر غدت أكثر تعقيدا فى القصيدة الحديثة ، وأصبح الشاعر فى بض الأحيان يختفى فى ظل « الأنا » العام مؤديا دورا تعبيريا يتفق مع تطـور دور الفن ، وأحيانا آخرى يركز على « الأنا » الخاص، ولكنـه تركيز يختلف عن الدور الذى كانت تـؤديه

قصيدة الفخر التقليدية ، فهو تركيز على النموذج لأعلى الفرد ومحاولة للوصول الى أقصى درجات العمـوم من خلال تصوير دقائق الخصوص • والحدود التى تفصل بين « أنا » و « نحن » تبدو فى كثير من الأحايين هشـة وتبدو الحركة شديدة التداخل بين طرف وآخر •

تساءل الناقد الفرنسى جون كوين عند حديثه عن لغة الشعر عن مدلول الضمائر الشخصية فى القصيدة ، وعن الفرق فى الدلالة بين اسم العلم والضمير ويرى أنه « على العكس من الاسم الذى يعنى شخصا محددا ، فان « أنا » يمكن أن تنطبق على كل شخص ، ولـكى نرفع الغموض لابد أن نعرف من هو المرسل « للرسالة » وفى اللغة المتكلمة نحصل على هذه المعلومة من خلال هـذا الموقف فالمرسل هو الذى يصدر عنه الصـوت ، لـكن القصيدة تكتب ، واللغة تعد خارج الموقف • ومن هنا فان « الرسالة » ذاتهـا عليها أن تزودنا بالمـعلومات الضرورية •• فالخطاب يحمل توقيعا ، وكتاب الترجمة الذاتية يحمل اسم المؤلف ، وفى الرواية المكتوبة عـلى لسان الشخص الأول تشير « أنا » الى ذات خيالية دون شك ولكنها ليست أقل حضورا وتميزا داخل السياق

•• فماذا يمكن أن يقال عن القصيدة •• ان « ايتين سوريو » يقترح اجابة على السؤال عندما يقول « أنا هي نحن » في وقت واحد شاعر رئيسى ومطلق ، وأيضا صورة شاعرية عن ذلك الشـاعر يريد أن يقـدمهـا للقارىء ، بل هي القارىء نفسه باعتباره قد دخل في القصيدة الى مكان قد أعد له لكي يسـهم في مشـاعر قدمت اليه » (١) •

ان كل درجات التوحد والتآلف والانصهار والعزلة والموقف الخاص والاحتجاج والرفض يمكن أن تعالج في القصيدة الحديثة انطـلاقا من محـاولة الامسـاك بشبكة الضمائر وتداخلها في البناء الشعرى ، وهـو منهج لو استطعنا أن نطوره لكان أجدى كثيرا من المقولات التى تلبس القصيدة من خارجها وتعود الى «دوجماطيقية» حديثـة تحت دعاوى التحليـل الأيديولوجى المختلف المناحى •

ان البحث عن الضمير الثانى (المخاطب) والضمير الثالث (الغائب) لا يقل أهمية فى البحث عن مواطن

---

(١) بناء لغة الشعر ـ تاليف جون كوين ، ترجمة د• أحمد درويش ـ القاهرة ، مكتبة الزهراء سنة ١٩٨٥م : ص ١٨٢ •

تردد أنفاس الشاعر فى القصيدة ، وعن اتجاهات نمو الحركة بها ، وعن مدى تحقيقها لقدر من « الاتصـال الفنى » لا غنى عنه لأى فن مهما كانت درجة تجريده ، وقد يكون تنبه الشاعر نفسـه حتى فى لا وعيـه الى ضرورة وجود مثل هـذا الهيـكل العصبى فى أعماق القصيدة ، عاصـما له من كثير من ألـوان التجـديف والسباحة على غير هدى، وهى ظاهرة تقع فيها القصيدة الحديثة فى بعض الأحايين ، وتكون رافدا رئيسيا من روافد ظاهرة الغموض ، وسببا لا ينـكر فى انقطاع دائرة الاتصال الفنى من خلال شبكة الضمائر المثلثـة الزوايا ، والذى يحـدث غالبا عندما تنقطع أسـباب الاتصال بين الأطـراف أن تظل القصيدة تدور حـول نفسها ترسل اشارات غامضـة لا ينجح الـكثيرون فى التقاطها ، وقد تسأم هى نفسها بعد حين ، فتأوى الى ركن منزو من أركان السديم اللامتناهى وتقنع بالحديث الى نفسها والى جاراتها المنزويات ، وعندما يتكرر ذلك من منبع شعرى واحد مرات متتالية ، فان الاحباط ربما يكون من أشد الأعداء التى تتربص بالشاعر حينئذ ٠

أن جـزءا من أزمة قصيدة « الصـدور من فيض العشق » فى هذا الديوان ، يعـود الى الطريقـة التى

استخدمت بها الضمائر ، وقد نتساءل : من يتحدث الى من فى هذا المقطع ! :

واحد مكتمل
عاشق ذاته
وأنا ممكن الوجود
تفاعلت فى فقلت وحيدا
لماذا يكون الوجود بدد
تقاسمت فى ملكوت التملك نفس
انشـــطرت
وصار المشابه منى
فصرت أنا واجبا للوجود
وصار الوجود أحد

ورغم أن النسخة الخطية التى قرأت فيهـا هـذه القصيدة حرصت على التمييز بين التاءات المضمومةالتى تشير الى المتكلم والتاءات المفتوحة التى تشير الىالمخاطب فان تتبع مسار شبكة الضمائر قد يقود الى خلط خطير بين مقام الألوهية ومقام الشعر وهو خلط يمـكن أن يعزى فى المقام الأول الى التجديف فى منطقة عاصفة دون التمهل الكافى لنضوج شبكة التعبير اللغـوى فى الذهن ٠

وقد يكون من الاستطراد الاشارة أيضا الى أن حظ هذه القصيدة أنها وقعت على معجم تعبيرى وتصويرى ابتعد بها قليلا عن المستوى الجيد الذى ظهر فى القصائد الأخرى وتمثل ذلك فى اللجوء الى ما يمكن أن يسمى « بالنظم الفلسفى » :

أراقب فوضى نظام التفجر ثم التولد
والنفس من فرحها تبتهل
مدارات ، أجسام ، أرقام ، أشياء كل الهيولى ملك
فصار الفراغ حياة
وصار الفراغ فلك
تغير عاشرهم فى التفجر والعشق حتى القمر
أطل على الفلك المنتظر
هى الماء والترب والنار والريح
والفعل والمستقر

ان الموقف الفلسفى فى ذاته لا ينكر استخدامه فى الشعر ، بل انه من أقرب المواقف قربا من روح الشعر ، ولا أريد أن أذكر هنا بالربط الشهير فى موقف الدهشة المستمرة بين الشعراء والفلاسفة والأطفال ، لكن الذى ألاحظه هنا أن الموقف الفلسفى استخدم استخداما « نيئا » بمعنى أن الشاعر لم يعطه فرصة « التشعير »

والنضج ، والاختلاط باللحم والدم ، حتى يصبح موقفه هو الخاص ، وجزءا من روح فنه ، لا غريبا عليه ·

ان طريقة الاستخدام هذه ، تكررت مرة أخرى ــ على الأقل ــ عندما لجأ الشاعر الى مصطلحات علم النحو ليطفىء افتتاحا شعريا جميلا فى قصيدة من أين يأتى البحر لقد جاء الافتتاح على هذا النحوالتصويرىالمشع :

البحر شــعر الأرض
تنشره الرياح على اضطراب
فى كل منعطف زبد
هل مرت السنوات بالأعمار
شاب ؟

ولا تكاد نفس المتلقى تدفء بهـذه الافتتــاحية حتى يطفئها الشاعر بمقطع تال ينتمى الى مستوى تعبيرى مختلف ، ويندرج فى هذا النوع من الاستخدام «النيىء» الذى أشرنا اليه من قبل ، حين يقول :

زمن يسافر فى المدارات التى نقشت عليها
النون نون الجمع لم يبق سوى فرد الخواء
. . . .
كان المضارع فاتحا كل الحروف على ضفاف
. . . .

وأنا « أنيت » مضارعا
أبغى نويت مصارعا
لم يبق من ثاء الأنوثة فوق كفيها
سوى نقش الخواتم فى أصابعها

ان لغة الشعر تقوم بعمل كيميائى تنصهر خـلاله كل العناصر التى من حقها أن تستخدمها وهى عناصر غير متناهية ، فى بوتقة واحدة ومن شأنها أن تأخذ من خلال هذا الانصهار درجة جـديدة للحـرارة والمذاق والملمس خاصة بها ، وهـذه الدرجة ليست هى درجة العناصر الأولية التى تكونت منها الصورة ، ولكنها أيضا ليست منفصلة عنها ، فاذا استطعت بعـد أن تتـكون السبيكة بين يديك أن تتعرف فيها على مصادرها الأولى وكأنها متفرقة كما كانت قبل الانصـهار وقد تم فقط تشابكها ، فهناك قصور ما فى كيمياء الشعر ٠

اننا اذا عدنا مرة أخرى للقصيدة الجيـدة « الجلوة الأخيرة » من وجهة نظر « الهيـكل العصبى » للقصيدة ممثلا فى شبكة الضمائر ، فاننا سوف نجد اتساقا جيدا بين المقاطع المتتالية ، فالمقطع الأول يبدو مقطعا محايدا يخلو من أى انتماء الى زوايا المثلث ، وهو يقدم جزئياته الممتدة من الطبيعة الصامتة والناطقة فى أكبر قدر من

الرصد وأقل من التعليق ، وهذا كله يجعل هذا المقطع كأنه لوحة معلقـة فى الفضـاء ، تهيىء نفس المتلقى للحركة فى الاتجاه الذى سوف تختار القصيدة ·

ثم يتتاقب ظهور الضمائر بترتيبها ، الضمير الأول ـ المتكلم ـ فالثانى ـ المخاطب ـ فالثالث ـ الغائب ـ وذلك فى المقطعين الثانى والثالث ، ففى بداية المقطع الثانى يظهر ذلك الصوت الذى يشد اللوحة المعلقة له ويجعلها تنتمى اليه :

(انه زمن يجيىء نزهة به ونعود من زمن الأفول)

وهذا الضمير المتكلم نفسـه والذى تختلط فيـه الحدود بينى « أنا » و « نحن » بين أزهو ونزهو وأعود ونعود ، هذا الضمير سوف يكمل دائرة الاتصال عندما يتولد عن حميا التفاعل فيه ، الضمير الثالث ، المخاطب:

يا شيوخ ·· ياشباب : ارفعوا أصواتكم بالأغنيات

فتكتمل الدائرة الشعورية وتبدو وكأنهـا امتلكت عناصر الرضا والزهو جميعا ، فالصورة الغنية للطبيعة والتى اتصلت بالحواس جميعا وجاوزتها الى ما وراءها، واكبها امتزاج عناصر البشر ومن بينهم الشاعر واحدا من المتكلمين وواحدا من المخاطبين ، ومن حول هذا كله تندفق المشاعر تدفق النهر ·

غير أن نقطة التحول المفاجئة ، تأتى عنـدما يطل ضمير الغائب فجأة برأسه ودون مقدمات ، وحتى دون مرجع للضمير يستند اليه ، وذلك فى المقطع الثالث الذى يعود مرة أخرى الى سرعة ايقاع المقطع الأول (فعولن):

هم الآن يستفطرون من القلب دمع الطفولة
يستحلبون من الثدى ماء الحياة
يجوسون فى الصدر بالقد القاسية
يدقون حد الحدود فى الضفة الباقية وفوق الطلول
يقصون من باطن الأرض جذر الرجولة
. . . . . .
فيصطك سمع الزمان وسمع المكان بقرع الطبول

ان هذا « الغائب » الذى جثم على هذا المقطع الأخير جاء ليطفى بهجة الزهو التى تولدت فى المقطع السابق، وجاء ليقدم مشاعر مقابلة لما قدمه المقطع الثـانى ، فهناك تسيطر مشاعر العطاء وتسيطر هنا فى المقابل مشاعر الامتصاص والأخذ (يستفطرون ـ يستحلبون ـ يقصون)، واذا كان التعبير هنا قد آثر آن يعود الى صيغة الفعل المضارع التى اختارها فى المقطع الأول (بدلا من اسم الفـاعل فى المقطع الثـانى) فانه غاير فى المقطع الأول فى ملمح تعبيرى صغير ولكنـه ذو دلالة

هامة ، لقد جاءت الأفعال المضارعة جميعا وقد خلت من الربط بينها (هم الآن يستفطرون ــ يستحلبون ــ يدقون ٠٠ يقصون ٠٠ الخ) ٠

وهنا يكمن الفرق فى الانطباع بين اللوحة الأولى للطبيعة التى « تعطى » فى هدوء متواصل واطراد يتمثل فى تتابع الواو والفعل المضارع ، والانطباع الذى يحدثه المقطع الثالث فى هؤلاء الغرباء اذ هم (الذين يمتصون كل شىء فى عجلة ولهفة لا تسمح حتى يوضع الحرف الفاصل بين الفعل والفعل) ، فالأفعال تتوالى وكأنها خيط واحد ممتد من الحدث ٠

ان الصورة فى هذا المقطع تنمو نموا دقيقا ، والذى يتأمل فى جزئياتها يلاحظ أن هناك « هبوطا » مطردا ٠ فالصورة تبدأ من العين نازلة الى الثدى والصدر وبعدها الى القدم ثم تهبط الى باطن الأرض والبحر والنهر ، وكل شىء يهبط وينزل ويتدنى ، وذلك الخط الهابط يتناسب فى طبيعته مع المشاعر التى تهبط وتنكس فى هذا المقطع ، وهو فى الوقت ذاته يقابل الخط الصاعد الذى يمكن أن نتصوره فى المقطع الأولى الذى يبدأ من صورة القطار ، وتتلوها صورة العصافير فالأشجار (ولو تم عكس الترتيب بين الأشجار والعصافير لأعطت

الصورة قدرا أكبر من الاتساق) ثم ينتهى خط الصعود الى الشمس ٠

ان هذا التقابل والتداخل والتعارض الذى يقـود فى النهاية الا الاتساق هو جزء من طبيعة الفن الجيد ، لأنه جزء من طبيعة الكون نفسه ، وكمـا يقـول أحد النقاد ٠ فان (التناسق يولد من التناقض والكون كل مركب من عناصر متضـادة ، والشـعر الحقيقى يدفع عناصر التضاد حتى تتولد منها عناصر التقارب)(١)٠

شدت «تداعياتالعشق» الشاعر فى كثير من قصائد الديوان الى محاور متقاربة ، وسيطر « الوطن » عـلى كثير منها ، وكادت بعض القصائد أن تبدو ايقاعات متنوعة المعزوفة واحدة ، ومن هذا المنطلق تبدوالقصائد الثلاث الأولى ، « آلف باء الحجم » و « اغتيال » و « أية من ديمومة العذاب » متقاربة المنبع متشابهة فى خطر التطور والتركيز على بقعة مضيئة فى عمق الصورة تم تجـاوزها الى واقع أقل تآلفا والتريث أمام لحظـات الانكسار وخيبة الأمل ، كل ذلك من خلال عرض تختلف

(١) Roman Jakobson, op. cit., p. 31.

درجة الشفافية فيه ، ومن ثم درجة التوصيل من قصيدة لأخرى ومن هذه الزاوية تختلف هـذه القصـائد فى مجملها عن قصائد أخرى فى الديوان تبدو أكثر استجابة لتطلعات شوق المتلقى للوصول الى أسرار العمل الفنى، مثل قصيدة « الجلوة الأخيرة » و « صفحات من أوراق عاشق » و « انتظار » .

ويرحل الشـاعر عن اللحظة الحاضرة مختـارا رموزه من الماضى فى مثل قصيدته المطـولة عن « ابن ماجد ـ تداعيات العشق والغربة » ، ولكنه يثبت عينيه دائما على الوطن الحاضر ، ويقرأ همـومه من مواقع زمانية مختلفة كمـا قرأها من قبل من مواقع مكانيـة مختلفة :

ما كنت صدقت الرواية
من يذبح الورد النضير على موائده
ذبح الورد جريمة ، والورد مسئول وقلبى غاضب
ودم تبرعم فى الخليج
ودم تبرعم فى الجليل
ودم تغرق فى البقاع
ومطاردا حتى النهايات البعيدة فى البحار

ان هذه الطريقة التى اتبعتها القصيدة فى الاعتماد على رموز التراث واحيائها ورؤية الحاضر من خلالها ، طريقة شـاعت فى القصيدة الحديثـة ، ونجح بعض الشعراء فى اجادة البناء الفنى من خلالها ، ولا يستطيع المرء هنا أن يمنع نفسه من الاشارة الى اسم أمل نقل وبعض قصائده مثل « البكاء بين زرقاء اليمامة » من مذكرات المتنبى و « مقتل كليب » ٠٠ ولعل هذا النوع من التكنيك يحتاج الى دقة بالغة فى نرج الحدث بالتعليق، وعدم السماح للتأمل والتعليق المجرد بالطغيان حتى لا يفقد المتلقى خيوط الربط التى ينبغى أن يستشعر رائحتها دائما خلال تقدمه فى متابعة هذا النوع من القصائد المطولة ٠

كما تشد القصائد محاور معنية ، فان الشـاعر يميل الى صور بعينها ، ويقترب منها دائما ويلف عن حولها ، ولا تكاد تغيب عن عين القارىء فى أى قصيدة من قصائد الديوان ، صورة الماء فى «ألف باء الحجم» : زلزل الصدر بالموج . فى آية من ديمومة العذاب : وكان الرب يخرج من مياه النهر مغتسلا ، فى الصـدور من فيض العشق : تعاليت فوق العروش على الماء ، وبعدها تأتى قصيدة من أين يأتى البحر ، ومحور قصيدة الجلوة

الأخيرة هو النهر ، ولا يختفى النهر من قصيدة المرايا :
هو النهر يطرح طميا جديدا ٠٠ تعود الجياد الأصيلة
للبر من بحرها ٠٠ الخ ٠

أما ابن ماجد فقصيدته كلها على سطح المحيط ٠٠
ان صفحات الديوان من هذه الزاوية وحدها ـ تنديها
المياه فى كل مكان !

★★★

لم أرد من خلال هذا الوقوف أمام بعض الظواهر
والقصائد فى ديوان تداعيات العشق والغربة للشاعر
صلاح والى ، أن أنوب عن القارىء فى تذوقه ولكن أن
أدعوه الى مزيد من التأمل فى قصائده ، والى أن لا يأخذ
القصيدة الحديثة عامة بما قد تولده القراءة الأولى من
انطباع ، والى أن يحس معى أن الشعر الجيد ـ وبين
أيدينا فى هذا الديوان كثير من نماذجه ـ يستحق
المعاناة فى قراءته حتى نصل الى تذوق المتعة الفنية
فيه ٠٠

مسقط فى ١٦ يناير ١٩٨٧م ٠

الفهرس

صدر من هذه السلسلة :

١	شوارع تنام من العاشرة	(قصص)	أحمد محمد حميده
٢	باب الريح	(قصص)	نبيه الصعيدى
٣	حكاية عروسة البحر	(شعر)	حجاج الباى
٤	الدم وشجرة التوت الأحمر	(رواية)	محمد عبد الله عيسى
٥	وقائع موت الجياد	(شعر)	عصام الغازى
٦	الشاطر حسن .. يخيب	(قصص)	عبد المنعم الباز
٧	... وعائد اليك	(شعر)	المنجي سرحان
٨	مهزلة عاائليـة	(مسرحية)	جمعة محمد جمعة
٩	قصاصات حب	(شعر)	اسماعيل على
١٠	تاريخ يؤرقه الظمأ	(قصص)	مشهور فواز
١١	بقـايا انتظار	(قصص)	عبد الفتاح منصور
١٢	اعدام قيس بن الملوح	(مسرحية)	محمد عبد العزيز شنب
١٣	نقوش الدم	(رواية)	رجب سعد السيد
١٤	تأملات فى وجه ملائكى	(شعر)	عبد الله السيد شرف
١٥	الصعود الى القصر	(قصص)	مصطفى الأسمر
١٦	اغتراب ..	(شعر)	ناجى عبد اللطيف
١٧	والفجـر	(قصص)	سمال نجيب التلاوى
١٨	فيضان يكون العشق	(قصص)	عبد المجيد أحمد
١٩	حكاية الديب رماح	(قصص)	خيرى عبد الجواد
٢٠	خديجة بنت الضحى الوسيع	(شعر)	السماح عبد الله
٢١	فارس أخر زمن	(قصص)	حسن شلندة
٢٢	شـهر زاد	(شعر)	نجوى السيد
٢٣	من ثقب الحزام	(قصص)	محمد هويدى
٢٤	العطش	(شعر)	فاروق الأفندى

العدد القادم

السيف والوردة (قصص) حسن الجوخ

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- باعة الصحف
- مكتبات الهيئة
- المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئة
- مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم
- منـافذ التوزيع فى مكان وفروع الثقافة الجمـاهيرية وهى **كما يلى :**

- الوادى الجديد .. الداخلة والخارجة

- البحيرة

- المنيا

- سوهاج

- بورسعيد

- دمياط

- فارسكور

- القليوبية (بنها)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٤٤٦٩

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٨٢٦ ـ ٥